محاضرة

حال السلف مع القرآن

لفضيلة الشيخ

خالد بن عبد الله المصلح

www.almosleh.com

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه أحمده سبحانه وأثني عليه الخير كله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ..

فإن نعم الله جل وعلا على هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم نعماً عظيمة متنوعة متعددة لا حصر لها ولا يمكن لإنسان أن يحيط بها في مجلس أو مجالس إلا أن أعظم ما أنعم الله به جل وعلا على هذه الأمة وعلى الناس عامة إنزال الكتاب الحكيم إنزال هذا القرآن العظيم الذي امتن الله جل وعلا بإنزاله على الناس أجمعين فإن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب خاتمة للكتب وجعله حجة على الخلق فهو أعظم آيات الأنبياء أعظم ما جاءت به الأنبياء هو هذا الكتاب العظيم لأنه المعجزة الآية العظيمة الباقية التي لا يحد أثرها زمان ولا مكان بل هي آية ما تعاقب الليل والنهار حتى إذا حيل بين الناس وبين القبول وصرفت قلوبهم عن الإقبال على الكتاب وتعطل الانتفاع به يرفعه الله جل وعلا في آخر الزمان عندما لا ينتفع الناس به فإن من تعظيم الله لكتابه أن يرفعه من المصاحف والصدور.

أيها الإخوة الكرام. . بشر الله جل وعلا بإنزال هذا الكتاب الحكيم بشر الله سبحانه وتعالى الناس عامة بإنزال هذا الكتاب فقد قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(1) ثم قال سبحانه وتعالى بعد هذه البشارة والبيان لما جاء به النبي ﷺ قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(2) هذه البشارة أيها المؤمنون أيها الإخوة الكرام تلقاها رسول الله ﷺ تلقاها بالفرح فكان فرحاً بكتاب الله جل وعلا فرحاً بنعمه سبحانه وتعالى وما خصه الله به من هذا الفضل العظيم فرحت به الأمة من صحابة رسول الله ﷺ فكان هذا الكتاب من أعظم النعم عليهم وكان انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ من أعظم ما أصيبوا به لما في ذلك من انقطاع المدد من السماء وانقطاع هذا الخير هذا

(1) يونس: ٥٧.

(2) يونس: ٥٨.

الكتاب فرح به التابعون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين لما تمتع به من الأوصاف العظيمة التي تكفل للناس سعادة الدارين سعادة الدنيا وفوز الآخرة فإن هذا الكتاب لا يقتصر نفعه على دار القرار على الدار الآخرة بل يجد المؤمن ثماره في الدنيا قبل الآخرة فهو الكتاب الذي تصلح به أمور الناس تستقيم به أحوالهم في الدنيا وفي الآخرة ولذلك بشر الله به الناس عامة فهو رحمة وهدى وشفاء قال الله جل وعلا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] وإنما خص المؤمنين بهذا لكونهم المنتفعين من هذا القرآن وإلا فإن القرآن رحمة لكل أحد ففيه الهدى والنور فيه ترتيب شؤون حياة الناس وإقامة معادهم وإصلاح دنياهم وآخرتهم ولذلك هذا الكتاب بهر عقول كثير من الناس حتى من لم يؤمنوا به فإن ما فيه من البيان وما فيه من الإعجاز وما فيه من الأسرار التي لا يحيط بها عقل ولا يدركها بيان ولا يحيط بوصفها لسان أمر يفوق الوصف أمر يتجاوز التصور وذلك لأنه كلام رب العالمين والله جل وعلا قد قال في محكم التنزيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] فليس كمثل ربنا شيء لا في صفاته ولا في ذاته ولا في أفعاله ولا فيما يجب له سبحانه وتعالى ومن جملة ما وصف الله به نفسه الكلام، فكلام ربنا جل وعلا ليس كمثله شيء كما أن صفاته سبحانه وتعالى ليس كمثلها شيء كما أن سائر ما يتعلق به جل وعلا ليس له نظير.

أيها الإخوة الكرام هذا الكتاب كما ذكرت لكم فرح به السلف فرحاً عظيماً أقبل عليه لم يشبع من تلاوته ولا من قراءته ففي أحوالهم وأمورهم وما نقل عنهم وما نقلته كتب السير من أعمالهم ما يتبين به عظيم فرحهم بهذا الكتاب وعظيم إقبالهم عليه وعظيم ما كانوا عليه من تعظيم لهذا الكتاب العظيم إن السلف الصالح أيها الإخوة هم الصحابة بالدرجة الأولى هم الذين شهدوا التنزيل وأخذوا عن النبي ﷺ بلا واسطة هم الذين اصطفاهم الله جل وعلا وخصهم بأن جعلهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، هؤلاء هم السلف بالدرجة الأولى ويلحقهم في الفضل من أثبت لهم

(٣) الإسراء: ٨٢.
(٤) الشورى: ١١.

الفضل رسول الله ﷺ حيث قال: "خير القرون قرني ثم الذين يلوهم ثم الذين يلوهم"[٥] فالتابعون وتابعوهم ممن يندرج في مسمى السلف لأنهم ممن أثبت لهم النبي ﷺ الخيرية على سائر قرون الأمة والخيرية في هذه الأمة لا يحصرها مكان ولا زمان بل هي باقية فالله جل وعلا قد أثبت الخيرية لمن اتبع المهاجرين والأنصار بإحسان فقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾[٦] فاتباع سلف الأمة بإحسان ينظمك في سلكهم ويضمك إلى حزبهم ولو لم تكن معهم في زمانهم ولو افترقت عنهم في مكانهم بل تشاركهم في الفضائل إذا شاركتهم في الأعمال أيها الإخوة الكرام إن هذا القرآن بين الله جل وعلا شأنه في كتابه الحكيم وكفى ببيان الله بياناً وكفى بوصفه وصفاً فهو جل وعلا الحكيم الخبير العليم الذي لا تخفى عليه خافية ولا يبلغ الخلق مهما أوتوا ومهما اجتمعوا من وصف الكتاب كما وصف الله جل وعلا كتابه قال الله جل وعلا في وصف كتابه: ﴿ق * وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[٧] فوصفه الله سبحانه وتعالى بالمجد والمجد في لغة العرب أيها الإخوة السعة في أوصاف الكمال فكل ما اتسع في أوصاف الكمال أثبت له هذا الوصف وأطلق عليه هذا اللفظ فالمجيد أي الذي كمل في صفاته واتسع في صفات الكمال والشرف حتى بلغ منتهاها وبلغ غايتها كيف لا وهو الروح كيف لا وهو النور كيف لا وهو الهدى كيف لا وهو شفاء لما في الصدور كما قال الله جل وعلا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[٨] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ من هنا ليست للتبعيض بل هي لبيان الجنس أي إن كل القرآن شفاء لما في الصدور وهو يشفي من الأمراض الحسية ويشفي في الأصل وفي الأساس وبالدرجة الأولى من أمراض القلوب من أمراض الشبهات من أمراض الشهوات.

أيها الإخوة. . إن سلف الأمة أقبلوا على هذا القرآن وإن وقفةً مع بعض أحوالهم يتبين بها ما كانوا عليه رحمهم الله من حسن التعامل مع هذا القرآن وليس عجباً فإن السلف الذين نتندر بما كانوا عليه من الفضائل ونتعجب مما كانوا عليه من السبق كانوا رضي الله عنهم

(٥) أخرجه البخاري برقم ٦٥١ وأخرجه مسلم برقم ٢٥٣٥.

(٦) التوبة: ١٠٠.

(٧) ق: ١.

(٨)الإسراء: ٨٢.

على هذه المترلة وبلغوا هذه المرتبة بما ارتسموه من قول الله جل وعلا وتوجيه رسوله ﷺ فهذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس إنما خرجت من بين دفتي المصحف الكريم من بين هذا القرآن الحكيم خرجت على ضوء توجيهات هذه الآيات المبينات وهذا القرآن العظيم، قال الله جل وعلا في وصف هذه الأمة وأول من يدخل فيها الصحابة رضي الله عنهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٩] هذه الأمة إنما خرجت من ذلك أي خرجت على هذه الصفة وعلى هذا النحو من هذا القرآن الكريم ولا عجب بعد هذا أن تنقل السير والسنن والكتب والدواوين عن أصحاب رسول الله ﷺ ومن تلقوا عنهم من التابعين وتابعيهم أن تنقل العجائب في التعامل مع القرآن الحكيم. .

إن وقفة مع بعض ما حفظته السنة من تعامل الصحابة وتلقيهم الحي للقرآن العظيم يعجب منها الإنسان ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: نزل على رسول الله ﷺ قول الله جل وعلا: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[١٠] هذه الآية يحفظها كثير منا ويقرؤها كثير منا لكنها لا تستوقف أكثرنا وذلك لأننا نقرأ القرآن لا على وجه التلقي لما فيه من المعاني نقرأ القرآن طلباً للأجر بقراءة لفظه دون نظر إلى ما تضمنه من المعنى، صحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما أنزل الله جل وعلا على رسول الله ﷺ هذه الآية التي فيها إثبات الملك لله عز وجل إثبات ما في السماوات وما في الأرض له سبحانه وتعالى وأنه جل وعلا يحاسب الناس على ما دار في صدورهم وما جال في نفوسهم ولو لم يتكلموا به و لو لم يعملوا صحابة رسول الله لما سمعوا هذا اشتد عليهم الأمر فأتوا إلى رسول الله ﷺ كما في الصحيحين ثم بركوا على الركب أي جلسوا على الركب من شدة ما جاءهم في هذه الآية فقالوا: يا رسول الله كلفنا من العمل ما نطيق: الصلاة، الصيام، الجهاد، الصدقة –أي كل هذا نطيقه– وقد نزلت علينا آية لا نطيقها فقال رسول الله ﷺ مؤدباً هؤلاء معلماً لهم كيف يتلقون القرآن، كيف يتلقون

(٩) آل عمران: ١١٠.

(١٠) البقرة: ٢٨٤.

كلام رب العالمين، **قال لهم ﷺ: " أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ قولوا: سمعنا وأطعنا "**[11] فما كان منهم رضي الله عنهم إلا أن انقادوا إلى توجيه النبي ﷺ وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم وتكلموا بها وقرؤوها وقبلوها قبولاً تاماً جاء التخفيف من رب العالمين جاء الفرج من الله جل وعلا الذي قال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[12] ما يفعل الله بعذابكم أي بإلحاق المشقة بكم إن شكرتم وآمنتم جاء الفرج من الله جل وعلا لهذه الأمة ونزل في كتاب الله جل وعلا تزكيتها وبيان فضل صحابة رسول الله ﷺ فقال الله جل وعلا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[13] فجاء التخفيف من رب العالمين بعد إثبات إيمانهم وقبولهم لما جاء عن الله وعن رسوله.

أيها الإخوة.. الشاهد من هذه القصة من هذا الحديث أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يتقبلون القرآن ويتلقونه على أنه شيء يتلى وتستنبط منه الأحكام ويعرف ما فيه من المعاني فقط بل قرؤوه رضي الله عنهم على أنهم هم المخاطبون هم المعنيون بما فيه من المعاني ولذلك شق عليهم فراجعوا رسول الله ﷺ في الذي شق عليهم من هذا القرآن وهذا النبأ وهذه القصة ليست الفريدة وليست الوحيدة التي حفظتها كتب السنة في فعل الصحابة رضي الله عنهم عندما أنزل الله جل وعلا ما وجد الصحابة رضي الله عنهم فيه مشقة وفيه عسراً وصعوبة في **الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن الله جل وعلا لما أنزل قوله سبحانه وتعالى على رسوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾**[14] [15] هذه الآية فيها البشارة من الله جل وعلا

---

(١١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب الإيمان برقم ١٧٩.

(١٢) النساء: ١٤٧.

(١٣) البقرة: ٢٨٥-٢٨٦.

(١٤) الأنعام: ٨٢.

(١٥) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣١١٠ وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان برقم ١٧٨.

لمن آمن وسلم من أن يخلط إيمانه بظلم فقوله تعالى ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي لم يخلطوه بظلم، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ لهم الأمن في الدنيا والآخرة، وهم مهتدون أيضاً في الدنيا والآخرة لأن الهداية المسؤولة والمثبتة لأهل الإيمان ليست فقط في الدنيا بل الهداية في الدنيا والآخرة وهداية الآخرة أعظم من هداية الدنيا لكنها لا تكون إلا لمن اهتدى في الدنيا لأن هداية الآخرة بها النجاة من أهوال ذلك الموقف العظيم الذي تشيب فيه الولدان ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١٦) ذلك اليوم يحتاج به الإنسان إلى هداية يخرج بها من تلك الأهوال ينجو بها من تلك المزالق يجوز بها الصراط فإنه لو لم يهده الله جل وعلا إلى اجتياز الصراط لما اجتاز ولما تمكن من السلامة من صراط ورد في وصفه أنه أدق من الشعر وأحد من السيف.

أيها الإخوة. . صحابة رسول الله لما نزلت عليهم الآية أتوا إلى النبي ﷺ وقد شق عليهم الأمر فقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه يعني مَن منا ما وقع في الظلم؟ كلنا واقع في الظلم وهذه الآية لا يحصل فيها الأمن ولا الاهتداء إلا بالإيمان الذي لم يخلط فيه الإنسان إيمانه بظلم فشرط حصول الأمن والاهتداء أن لا يقع الإنسان في الظلم ففهم الصحابة أن هذا يشمل كل ظلم الدقيق والجليل الصغير والكبير الشرك فما دونه فجاؤوا النبي ﷺ فشكوا له أنه لا سلامة من الظلم بل كل إنسان ظالم كما **قال النبي ﷺ: " كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون "**(١٧) وكما قال الله جل وعلا قبل ذلك: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(١٨) حيث حمل الأمانة وقد أعرض عن حملها السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ وهذا الوصف لا يختص بفرد من الناس ولا بجنس منهم بل هو لعموم الإنسان لعموم الناس فكلهم ظالم جهول لا يسلم الإنسان من هذين الوصفين إلا بالاهتداء بكتاب الله وبما جاءت به الرسل عن الله سبحانه وتعالى.

---

(١٦) الحج: ٢.

(١٧) أخرجه الترمذي في سننه من حديث أنس بن مالك في كتاب صفة القيامة برقم ٢٤٢٣.

(١٨) الأحزاب: ٧٢.

أيها الإخوة الكرام. . لما جاء الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي ﷺ يشكون ما في هذه الآية ويبينون مشقتها **على رسول الله ﷺ قال لهم: ليس الذي تظنون. أي ليس الظلم هو الذي ذهبتم إليه إنما هو قول الله جل وعلا في قول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**(19)(20) فالظلم الذي في الآية هو الشرك فهان الأمر على الصحابة رضي الله عنهم والشاهد أيها الإخوة أن الصحابة رضي الله عنهم لم يتلقوا القرآن تلقياً بارداً بل تلقوه للعمل وأخذوا به على أنهم هم المعنيون يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله جل وعلا في كتابه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك يعني أصغ إليها وأعطها أذنك فهي إما خير تؤمر به أو شر تنهى عنه"، وهذا لكونهم أخذوا القرآن للتلقي والعمل وأن كل ما فيه خطاب لكل من سمعه خطاب لكل من بلغه وليس المخاطب فيه قوم مضوا و لم يبقَ لنا منه إلا أن نتعبد ونتقرب إلى الله جل وعلا بما فيه من الألفاظ وما فيه من الكلام الذي جرّد عن معناه و لم يقصد بما تضمنه. إن الصحابة رضي الله عنهم ضربوا في هذا أمثلة رائعة وانقادوا لما في كتاب الله جل وعلا انقياداً تاماً: هذا أبو بكر رضي الله عنه تتهم إبنته عائشة بالزنى ويبرئها الله جل وعلا في سورة النور في قصة الإفك يبرئها الله سبحانه وتعالى ويتبين أن من جملة من رمى عائشة وتكلم فيها مسطح بن اثاثة وهو قريب لأبي بكر رضي الله عنه كان فقيراً كان أبو بكر يصله بالإعانة ثم لما تبين الأمر وتبين براءة عائشة رضي الله عنها حلف أن لا يصله شيئاً من عطاياه بعد أن فعل ما فعل فأنزل الله جل وعلا قوله سبحانه وتعالى ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(21) فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى بلى. فانتهى أن يمتنع مما جرت به يده رضي الله عنه من الصدقة والإحسان على مسطح بسبب ما كان منه من إساءة لعائشة رضي الله عن الجميع.

أيها الإخوة الكرام. . إن الصحابة رضي الله عنهم تعاملوا مع القرآن تعاملاً ليس في جانب واحد ليس في جانب التلقي، فاقوا الأمة في جوانب عديدة من ذلك قراءتهم للقرآن

(١٩) لقمان: ١٣.
(٢٠) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣١١٠ وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان برقم ١٧٨.
(٢١) النور: ٢٢.

فإن الصحابة رضي الله عنهم لازموا قراءة هذا القرآن كان أحدهم يلقى أخاه في الطريق فيقول: اجلس بنا نؤمن ساعة فيقرأ أحدهم على الآخر سورة العصر كانوا إذا اجتمعوا كما ثبت عنهم رضي الله عنهم كانوا إذا اجتمعوا جعلوا أحدهم يقرأ والبقية يستمعون للقرآن فالقرآن كان مخالطاً لحياهم في قلوبهم في مجالسهم في تذكرهم وموعظتهم فالقرآن دخل معهم في كل أمر وكانوا رضي الله عنهم مقترنين به مقبلين عليه مشتغلين به عن غيره فلذلك فاقوا غيرهم في الفقه فاقوا غيرهم في العمل فاقوا غيرهم في الجهاد فاقوا غيرهم فيما كتب الله على أيديهم من النصر كل هذا كان بسبب ما كانوا عليه من تعاهد القرآن والإقبال عليه والأخذ به والاستكثار منه. .

إن الصحابة رضي الله عنهم كان أحدهم يقرأ القرآن في مجلسه يقرأ القرآن في صلاته ولا إشكال يقرأ القرآن في طريقه يقرأ القرآن في كل شأنه وقد كان عثمان رضي الله عنه ليلة مقتله تالياً لكتاب الله جل وعلا حتى أنه ذكر أن الذي قتله –عليه من الله ما يستحق–قتله وكان في يديه كتاب الله جل وعلا.

أيها الإخوة الكرام. . سار السلف الصالح التابعون ومن بعدهم على منوال أولئك في قراءة الكتاب الحكيم في الأخذ به رضي الله عنهم فهذا عثمان بن عفان يقول: قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير وقراءة القرآن والعمل لله تعالى منه رضي الله عنه وقال آخر: ما رأيت أحسن انتزاعاً لما أراد من آي القرآن من أبي سهيل بن زياد وكان جارنا وكان يديم صلاة الليل والتلاوة فلكثرة درسه صار القرآن كأنه بين عينيه يعني في الاستشهاد والاستفادة مما في هذا القرآن من الأحكام يقول أيضاً آخر في وصف ما كان عليه مالك بن أنس إمام دار الهجرة: قيل لأخت مالك بن أنس: ما كان شغل مالك بن أنس في بيته بماذا يشتغل في بيته بماذا يعمل في بيته قالت: المصحف والتلاوة. هذا شغل الإمام مالك رحمه الله في بيته المصحف والتلاوة والآثار في ذلك كثيرة ومن العجيب أن بعض السلف كان إذا اجتمع إليه أصحابه أوصاهم عند التفرق بأن لا يجتمعوا في سيرهم بل يمشي كل واحد منهم بمفرده قال لهم: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه ومتى اجتمعتم تحدثتم فانشغلتم عن القرآن. هكذا كان السلف رحمهم الله في قراءهم القرآن وإقبالهم عليه وحرصهم على تلاوته لكن هذه التلاوة

لم تكن مجرد قراءة للألفاظ فإن الله سبحانه وتعالى أثنى على الذين يتلون الكتاب ثناءً حسناً في كتابه ولكنه أيضاً ذمّ قوماً يقرؤون الكتاب لكنهم لا يفقهون ما تضمنه الكتاب من التوجيه فقال الله جل وعلا في وصف طائفة من بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾[٢٢] يعني إلا قراءة ليس عندهم من معرفة كتاب الله ولا من نصيب من هذا الكتاب إلا مجرد التلاوة ليس عندهم فقه ولا معرفة ولا فهم للمعنى ولا تدبر ولذلك حث الله جل وعلا في كتابه على النظر في الآيات ومن جملة ذلك الآيات التي تضمنها الكتاب الحكيم قال الله جل وعلا: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٢٣] فهذا الكتاب أنزله الله جل وعلا ووصفه بأنه مبارك ثم بين الطريق الذي تحصل به بركة هذا الكتاب والطريق الذي تنال به خيرات هذا الكتاب فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أي ليحصل لهم التدبر ولا سبيل لتحصيل بركة الكتاب إلا بهذا وقد أمر الله جل وعلا رسوله ﷺ في أول البعثة أمره بقيام الليل فقال الله جل وعلا لرسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[٢٤] أي ترسل في قراءته ورتل القرآن ترتيلاً ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[٢٥] وهو القرآن فالقرآن قول ثقيل يحتاج إلى تهيئته ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾[٢٦] أمره بقيام الليل وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ يعني يتفق فيها قول اللسان مع تدبر القلب ونظره وتأمله وتفكره ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وناشئة الليل قيل في تفسيرها: أوقات الليل وقيل في التفسير أيضاً: عمل الليل وكلا القولين يؤيد ما استشهدنا به من أن النبي ﷺ أمره الله عز وجل بما أمره ووجهه بأن يكون ذلك في الليل قياماً لكونه أدعى لمواطأة القلب اللسان بالتدبر وقد امتثل رسول الله ﷺ توجيه

(٢٢) البقرة: ٧٨.

(٢٣) ص: ٢٩.

(٢٤) المزمل: ١-٢-٣-٤.

(٢٥) المزمل: ٥.

(٢٦) المزمل:٥-٦.

الله جل وعلا وأمره **ففي صحيح مسلم عن أبي حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ((صليت مع رسول الله ﷺ ليلة فقرأ البقرة وآل عمران والنساء في ركعة))**[٢٧] كل هذا من نبينا ﷺ في ركعة في ليلة، وما هي صفة هذه القراءة هل هي قراءة الهذّ والنثر الذي لا يعقل له معنى ولا يعرف له مقصود؟ لا والله، **يقول حذيفة رضي الله عنه في وصف قراءته ﷺ: ((إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح أو سؤال سأل أو تعوذ تعوذ))**[٢٨] هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ قراءة تدبر ونظر وتفكر ليست قراءة هذّ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في وصف القراءة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن قال: " لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذّ الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب " هذا القرآن فيه من العجائب والأسرار ما لا ينفتح للذي يقرؤه قراءة عجلى قراءة لا تدبر فيها ولا نظر فإن الله جل وعلا يمنع من امتهن القرآن و لم يعطه حقه من أن يقف على أسراره وعجائبه السلف رحمهم الله من الصحابة ومن بعدهم كان أحدهم يجلس في تعلم سورة من القرآن سنين متطاولة، فابن عمر رضي الله عنه جلس في تعلم سورة البقرة ثمان سنين وقيل: جلس اثنتي عشرة سنة في تعلم سورة البقرة، وكانوا رضي الله عنهم كما قال أبو عبدالرحمن السلمي: " كان الذين يقرؤننا القرآن من صحابة رسول الله ﷺ عثمان وأبي بن كعب وغيرهم ممن كانوا يقرؤن التابعين يقولون: " كنا على عهد النبي ﷺ لا نتجاوز العشر آيات حتى نعرف ما فيها من القرآن والعلم والعمل فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً" هكذا كان صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم ابن مسعود يقول: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

وروى مالك أن ابن عمر رضي الله عنه تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً رضي الله عنه وطول هذه المدة ليست فقط لحفظ ذلك وضبطه من جهة اللفظ بل إن المظنون فيهم رضي الله عنهم أنهم أسرع حفظاً من المتأخرين لكنهم كانوا يتفقهون وينظرون إلى ما تضمنه هذا الوحي من الخير العظيم الذي حصل لهم الفقه فكلامهم رضي

(٢٧) أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة برقم ٧٤٠.

(٢٨) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١٢٩١.

الله عنهم قليل لكنه كثير البركة لأنه نابع عن فقه ونظر دقيق أما كلام المتأخرين فهو كثير لكنه قليل البركة.

أيها الإخوة الكرام. . الصحابة رضي الله عنهم كان أحدهم يقيم الليل بآية واحدة وقد ورد ذلك عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم **كما في حديث أبي ذر فإنه قال: قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**(٢٩)(٣٠) هذه الآية أقام النبي ﷺ ليلة تامة في ترديدها وقراءتها، وورد ذلك عن جمع من الصحابة فعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كرر قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٣١) ردد هذه الآية حتى أصبح، وورد ذلك أيضاً عن أسماء رضي الله عنها أنها قرأت قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾(٣٢) فوقفت رضي الله عنها عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال عليّ ذلك هذا الراوي يقول: فطال عليّ ذلك فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو رضي الله عنها. هذا التدبر للقرآن، فالتكرار في آيات القرآن ليس تكراراً لطلب الأجر بقراءة الأحرف إنما هو لطلب ما فيها من المعاني وطلب ما فيها من الخير وورد أن ابن مسعود رضي الله عنه ردد قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾(٣٣) وورد عن سعيد بن جبير رحمه الله أنه ردد قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾(٣٤) وورد ذلك عن جمع من التابعين والصحابة رضي الله عنهم. والترديد للآية ليس أمراً مشروعاً في الفرائض لأن النبي ﷺ لم يفعل ذلك و لم ينقل عنه إنما هو في النوافل كما جاء ذلك في أثر حديث أبي ذر الذي رواه النسائي وغيره هذا الترداد للآيات هو من شواهد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتدبرون القرآن لأن الترداد والتكرار لهذه الآيات إنما هو للنظر في معانيها، وقد كان

(٢٩) المائدة: ١١٨.

(٣٠) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح برقم ١٠٠٠.

(٣١) الجاثية: ٢١.

(٣٢) الطور: ٢٧.

(٣٣) طه: ١١٤.

(٣٤) البقرة: ٢٨١.

الصحابة رضي الله عنهم يطيلون البكاء عند آيات الكتاب ولا عجب فقد رأوا ذلك من رسولهم ﷺ وقبل ذلك فإن الله جل وعلا أثنى في كتابه على الأنبياء وعلى أولي العلم الذين يخرون للأذقان سجداً والذين يخرون للأذقان يبكون مما في هذا الكتاب من المواعظ قال الله جل وعلا في وصف جماعة من الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[٣٥] وانظر إلى قوله: ﴿خَرُّوا﴾ الذي يدل ويشعر بالمسارعة إلى السجود وأن السجود سجود ذل وخضوع وانكسار وتضرع ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ أيضاً أخبر الله جل وعلا عن قوم من أهل الكتاب فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٣٦] فشواهد ثناء الله جل وعلا على الباكين عند تلاوة القرآن كثيرة وهي من الفضائل التي امتدح الله بها من امتدح من النبيين ومن أولي العلم وممن تعقلوا وتدبروا ما في هذا الكتاب من الحكم ولذلك كان سيد ولد آدم ﷺ من أعظم الخلق نصيباً في ذلك **ففي حديث عبدالله بن الشخير قال: " رأيت رسول الله ﷺ يصلي بنا** -أي يصلي بالصحابة- **وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء"**[٣٧] والأزيز هو الحركة والحنين الناتج عن التدبر والتأثر بالقرآن الحكيم وقد صح عن النبي ﷺ **في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن مسعود: "اقرأ علي". فقال عبدالله رضي الله عنه: "أقرأ عليك وعليك أنزل؟ " قال النبي ﷺ: " فإني أحب أن أسمعه من غيري" يقول: فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ**

(٣٥) مريم: ٥٨.
(٣٦) المائدة: ٨٣.
(٣٧) أخرجه أحمد في من برقم ١٥٧٢٢.

شَهِيداً﴾[٣٨] قال له رسول الله ﷺ: ((أمسك فإذا عيناه تذرفان بكاءاً من تأثره ﷺ بما سمع))[٣٩].

وهذا أيها الإخوة ليس في هذين فقط بل في مواضع عديدة من هديه ﷺ فإنه كان كثير البكاء لهذا القرآن وما تضمنه من الحكم وما تضمنه من العبر والآيات وقد سار على ذلك صحابة رسول الله ﷺ فأبو بكر الصديق رضي الله عنه ابتنى بيتاً وهو بمكة ابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فتتقصف عليه نساء المشركين أي تجتمع وأبناؤهم يتعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بكّاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن وهذا ليس خاصاً بأبي بكر رضي الله عنه بل إن عمر رضي الله عنه مع ما عرف به من الشدة والقوة كان رضي الله عنه بكّاءً، يقول من روى من أصحاب السير: إن عمر رضي الله عنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته. وفي رواية كان في صلاة العشاء أي كان يقرأ ذلك في صلاة العشاء فهذا يدل على كثرة تكراره لهذه السورة وأنه رضي الله عنه كثير البكاء ويقول عبدالله ابن شداد بن الهاد قال: سمعت نشيج عمر بن الخطاب وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح يقرأ في سورة يوسف: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[٤٠] .

أيها الإخوة. . إن الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في البكاء والتأثر بتلاوة القرآن عديدة وكثيرة لكن هنا وقفة مع حال السلف في التأثر والبكاء عند قراءة القرآن البكاء نوعان: نوع يأتي بلا طلب وبدون تكلف وهو ما يكون من تأثر طبيعي لا يطلبه الإنسان إنما هو ناتج عن تدبره وتأمله لما في هذه من الآيات من الترهيب أو الترغيب أو عظيم صنع الله جل وعلا أو عظيم وصفه وهذا لا شك أنه الذي كان عليه حال السلف رضي الله عنهم وهو دال على سلامة القلب ولينه وصحته وحياته النوع الثاني: وهو البكاء الذي يكون بطلب منه ما يكون بطلب ينظر فيه الإنسان ويحث نفسه على النظر في معاني الكتاب ليتأثر ومنه قول عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ وأبي بكر لما رآهما يبكيان قال

---

(٣٨) النساء: ٤١.

(٣٩) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن برقم ٤٦٦٢.

(٤٠) يوسف: ٨٦.

لهما رضي الله عنه: يا رسول الله أخبرني ما يبكيك وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت معكما وإن لم أجد تباكيت وليس المقصود أنه يتكلف البكاء إنما يطلب أسباب البكاء التي من أجلها حصل البكاء للنبي ﷺ وأبي بكر وعليه يحمل **قول النبي ﷺ: ((إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا))**[٤١] فهذا الحديث يدل على مشروعية التباكي لكنه التباكي الذي ليس فيه تكلف وليس فيه طلب رياء ولا سمعة إنما فيه طلب التأثر بالكتاب إذا كان القلب قد منعه مانع أو عرض وحال دون حصول البكاء منه حائل. فينبغي لنا أن نطهر قلوبنا وأن نطيبها ليحصل بها التأثر بالقرآن دون تكلف.

أيها الإخوة. . هذا التدبر وهذا الترداد وهذا البكاء ليس آنياً محصوراً بوقت القراءة لا يثمر أثراً ولا يحصل به ثمر لما بعد القراءة بل إن حال الصحابة رضي الله عنهم حال تأثر ممتد حال تأثر غير منقطع ولذلك كانت أعمالهم رضي الله عنهم على خير حال وعلى خير مطلوب لأنهم رضي الله عنهم أثمر هذا التأثر في حياتهم، والواقع في حياة الناس اليوم أنك تجد في بعض الصلوات من يبكي عند قراءة القرآن بكاءً خاشعاً إلا أن هذا ولا يتجاوز حدود المسجد الذي حصل فيه التأثر وحصل فيه البكاء فليس لهذا البكاء أثر في العمل ولا أثر في السلوك ولا أثر في الأخلاق ولا أثر في ترك المعصية ولا أثر في الإقبال على الطاعة ولا شك أن هذا قصور وأن هذا تقصير فيما ينبغي أن يكون عليه أثر القرآن قال الله جل وعلا في بيان أثر القرآن على من اتبعه وأخذ به قال جل وعلا: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾[٤٢] لا يضل في عمله ولا يشقى في مآله ولا في حاله فهو سالم من الضلال وسالم من الشقاء فلذلك ينبغي لقارئ القرآن وسامعه أن يكون للقرآن أثر في سلوكه وخلقه قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن – ولا يلزم هذا أن يكون من الحافظ فقط بل هو لكل حامل له ولو حمل شيئاً منه – أن يعرف بليله إذا الناس نائمون وبنهاره إذا الناس مفطرون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخلطون وبخشوعه إذا الناس يختالون وينبغي أن يكون باكياً محزوناً حكيماً عليماً سكيناً –أي ساكناً– ولا يكون جافياً ولا غافلاً ولا

---

(٤١) أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها برقم ١٣٢٧.

(٤٢) طـه: ١٢٣.

صاخباً ولا صياحاً ولا حديداً – أي ولا شديداً في مطالبة الخلق ولا معاملتهم-. وقد ورد مثل هذا التوجيه وبيان أثر القرآن على حامله وعلى القارئ له في عدة أقوال من أقوال الصحابة رضي الله عنهم منها ما ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: " يا حملة القرآن – أو قال: يا حملة العلم – اعملوا به فإنما العلم من عمل علم ووافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم" أي لا يجاوز رؤوسهم لا يجاوز حناجرهم بل مجرد قول على اللسان ليس له أثر على القلب ولا شك أن هذا الحاجز وهذا المانع يمنع من التأثر بالقرآن والانتفاع به.

أيها الإخوة الكرام. . إن الصحابة رضي الله عنهم نزل القرآن معالجاً لأمراضهم وما كان من الوقائع ولذلك كانوا يتوقعون القرآن ويرقبون ويجلون ويخافون أن يترل شيء يبين شيئاً من عوراتهم أو يكشف شيئاً مما يكرهونه أو يكون سبباً لهلاك بعضهم فكانوا رضي الله عنهم على غاية الحذر والوجل في نزول القرآن وفي تلقيه ولذلك كانت أحوالهم مستقيمة رضي الله عنهم.

الصحابة أيها الإخوة كانوا إذا نزلت الآية تلقوها على الوصف السابق ثم كان العمل وكان الإقبال على سائر العمل الصالح وكان إذا عاتبهم الله جل وعلا وجد منهم الانزجار كما قال الله جل وعلا في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾(٤٣) () فكان الصحابة رضي الله عنهم يعاتبون بالقرآن فيحصل منهم الاستعتاب يحصل منهم المراجعة يحصل منهم إصلاح الخطأ إذا نزلت بهم مصيبة أو نزلت بهم هزيمة كما جرى في أحد وطلبوا السبب جاءهم الجواب كما قالوا في غزوة أحد ﴿أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين أتينا؟ قال الله جل وعلا في بيان ذلك: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٤٤) () فالقرآن في حياة الصحابة يختلف عنه تماماً في حياة غيرهم ولذلك تميزوا عن غيرهم تميزاً سابقاً واضحاً لا يلحق مقامهم ولا يدرك شرفهم رضي الله عنهم لكن كل من سلك سبيلهم ممن اتبعهم بإحسان وسار على طريقهم فإنه يحصل من الفضل والخير مثل ما حصلوا أو قريباً منه.

(٤٣) الحديد: ١٦.

(٤٤) آل عمران: ١٦٥.

أيها الإخوة الكرام.. الصحابة رضي الله عنهم اهتدوا بالنبي ﷺ في قراءة القرآن وفي تلاوته وفي العمل به وفي جعله منهجاً للحياة سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ ما خلقه؟ كما في الصحيح فقالت للذي سألها مستغربة ومنبهة قالت: أولست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت في جملة مختصرة تجمل مسلك النبي ﷺ وهديه وخلقه فقالت: كان خلقه القرآن. كان خلقه ﷺ القرآن يعمل به في نهاره ويقوم به في ليله فهو قائم به عامل به آناء الليل وآناء النهار لا يتركه لحظة من اللحظات بل كان يترجم القرآن ويبينه للناس بقوله وعمله وسائر شأنه ﷺ الصحابة رضي الله عنهم ساروا على هذا المنوال فكانوا ينظرون إلى القرآن في كل أحوالهم وفي كل أعمالهم ولذلك لما سئل ابن عمر رضي الله عنه عن مسألة من مسائل الحج قال لهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٤٥) () لما طلبوه عن دليل فعل من الأفعال لم يجبهم بأن النبي فعل أو ترك إنما لفت أنظارهم إلى الدليل الأكبر الذي ينتظم كل فعل فعله ﷺ وكل قول قاله، قال لهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

القرآن أيها الإخوة مترلته عند السلف مقدمة على سائر العلوم ولذلك كانوا لا يشتغلون مع القرآن بشاغل وقد صح عن النبي ﷺ أنه منع كتابة الحديث حتى استقر الأمر وميز القرآن عن غيره وحفظ القرآن عن غيره وقيل: إن منع النبي ﷺ عن كتابة غير القرآن في وقته ﷺ إنما كان ليتميز القرآن عن غيره ولئلا يشتغل الناس بغير القرآن حتى بقوله ﷺ وقد تنبه الصحابة إلى هذا الأمر فكان القرآن عندهم بالدرجة الأولى حتى إنهم كانوا يقولون: "إذا حفظ الرجل فينا سورة البقرة جد عندنا"، أي عظم وارتفع قدره وكان له من المترلة ما ليس لغيره، لأنها السورة التي تضمنت الأحكام الكثيرة والأوصاف العظيمة لرب العالمين ففيها آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله جل وعلا المهم أيها الإخوة أن الصحابة كانوا لا يعدلون بالقرآن شيئاً والناظر في أحوال كثير ممن يشتغلون بالعلم في هذه الأزمنة يجد أنهم عن القرآن معرضون والإعراض ليس إعراض هجر وبعد إنما هو إعراض ترتيب في أولويات طالب العلم إن أولى وأعظم ما اشتغل به من أراد العلم

---

(٤٥) الأحزاب: ٢١.

أن يشتغل بالقرآن العظيم حفظاً وتلاوة وتدبراً وفهماً للمعنى وإقبالاً على ما قاله أهل العلم في هذا الكتاب الحكيم.

وقد سار على هذا السلف الصالح فكانوا يقدمون القرآن على كل أحد واستمع إلى ما جرى لابن خزيمة رحمه الله وهو الملقب بإمام الأئمة يقول ابن خزيمة: استأذنت أبي في الخروج إلى قتيبة – ليتلقى عنه – قال: اقرأ القرآن أولاً حتى آذن لك فاستظهرت القرآن أي حفظته فقال: امكث حتى تصلي بالختمة – يعني حتى تصلي بنا وتختم بالقرآن – يقول: ففعلت فلما عيدنا أي انتهى رمضان وختمت بهم القرآن أذن لي فخرجت إلى مرو – يطلب هذا المحدث ليتلقى عنه – وسمعت بمرو من فلان وفلان فنعي إلينا قتيبة أي إنه لم يدركه ولم يتلقّ عنه، والشاهد من هذا أن السلف رحمهم الله ومن سلك سبيلهم ومن سار على طريقهم كانوا يجعلون القرآن في المرتبة الأولى في التعلم وحال الناس اليوم أنهم يشتغلون بعلوم الآلات وبالعلوم الأخرى عن القرآن فليس لهم نصيب من التفسير ليس لهم نصيب من علم القرآن وما فيه من الأحكام بل حتى الذين يشتغلون بالقرآن تفسيراً ليس لهم نصيب من القرآن في استنباط الأحكام فالقرآن مشتمل على أحكام وحكم كثيرة تحتاج إلى استنباط تحتاج إلى نظر ولا يمكن أن تستنبط ولا أن تحصل ولا أن تدرك إلا بإمعان النظر والتأمل والقراءة في كلام العلماء وجمع ما تفرق من كلام أهل العلم في آيات الكتاب الحكيم ليحصل للإنسان الخير وليحصل له الفقه في كتاب الله عز وجل والمعرفة بالقرآن الحكيم.

أيها الإخوة الكرام. . النبي ﷺ أعطانا معياراً دقيقاً وميزاناً واضحاً قسطاً في مسألة الخيرية **فقال ﷺ: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))**[٤٦] وهذه شهادة من النبي ﷺ ممن لا ينطق عن الهوى في فضيلة تعلم القرآن وتعليمه خيركم أي خير هذه الأمة من تعلم القرآن وليس التعلم هنا فقط تعلم الألفاظ إنما هو تعلم اللفظ مع المعنى خيركم من تعلم القرآن وعلمه فإقبال الناس وإقبال المرء على القرآن دليل واضح على خيريته وله من الخيرية بقدر هذا الإقبال فالذي يقبل فقط على حفظ القرآن فيه من الخيرية ما يقابل الحفظ فقط والذي يقبل على حفظه وفهم معناه وتدبره واستنباط الحكم والأحكام منه هذا فيه من الخيرية ما

(٤٦) أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان في كتاب فضائل القرآن برقم ٤٦٣٩.

ليس في غيره، من يقبل على هذا كله حفظاً وفهماً وتدبراً ويعقد ذلك بالعمل هذا فيه من الخير ما ليس في غيره وهلم جرّاً.. فبقدر أخذك للقرآن علماً وعملاً بقدر ما يكون معك من الخير وبقدر ما يحصل لك الكمال إذا استكملت مراتب التعلم ثم انتقلت إلى مراتب التعليم، فالتعليم للقرآن العظيم من خير الأعمال لأنه به تحفظ الشريعة وليس فقط كما ذكرنا التعليم للفظ بل التعليم للفظ والمعنى، والعجيب أيها الإخوة أنك إذا نظرت إلى سير العلماء على اختلاف أزمانهم ودرجاتهم في العلم ونفعهم للأمة تجد أنهم في آخر أوقاتهم يتحسرون على عدم الاشتغال أو يندمون على عدم الاشتغال بالقرآن ودوا لو أنهم أعطوا القرآن من النظر والبحث والتأليف والقراءة ما ليس لغيره من العلوم وذلك لما وجدوا في القرآن من الأثر والنفع والبقاء فإن في القرآن من العلم ما ليس في غيره يكفي قول الله جل وعلا في ذكر القرآن ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٤٧] () وقد طلب الكفار من النبي ﷺ الآيات والمعجزات فجاءهم الجواب في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[٤٨] () فالكتاب أعظم آيات الأنبياء أعظم حجة وأعظم برهان لكنه حجة وبرهان لمن تدبره وتأمله وأقبل عليه.

القرآن أيها الإخوة يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين كما قال النبي ﷺ ولا أدل ولا أصدق من وقوع هذا الحديث في واقع الأمة من رفع الله جل وعلا لسلف الأمة بأخذهم القرآن فإن الله رفع القرون المفضلة لما كانوا عليه من الإقبال على هذا القرآن قراءة وعلماً وعملاً وتعليماً ودعوة وغير ذلك من أوجه الانتفاع بالقرآن الحكيم.

أيها الإخوة إننا في هذه الأزمان المتأخرة التي بليت فيها الأمة بالمصائب والرزايا من عدة جهات فيما يتعلق بعلاقتها بربها وبعلاقتها بالخلق وعلاقتها مع دينها تحتاج الأمة إلى أن تراجع هذا الكتاب الذي **قال فيه النبي ﷺ: ((تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله))**[٤٩] فالواجب على المسلمين أفراداً وجماعات أن يعودوا إلى هذا

---

(٤٧) العنكبوت: ٤٩.

(٤٨) العنكبوت: ٥١.

(٤٩) أخرجه مالك في مسنده من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ: ((تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه)) برقم ١٣٩٥.

المعين الصافي إلى هذا المنبع الصافي الذي لا تنضب فوائده ولا تنتهي عجائبه ولا تنقضي أسراره وأسباب النجاة فيه فينبغي لنا أن نقبل على هذا الكتاب فيه القصص فيه العبرة فيه العظة فيه التثبيت فيه الهداية فيه النور كما قال الله جل وعلا في وصفه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾(٥٠) فهذا القرآن نور وروح فهذه أوصاف تبعث الحياة في الفرد كما أنها تبعث الحياة في الجماعة وكما أنها تبعث الحياة في الأمة فإن الأمة إذا أقبلت على الكتاب بشرت بهذين الروح والنور، الروح يحصل به الحياة والنور يحصل به التمييز بين الحق والباطل الخروج من هذه الظلمات التي أحلكت بالأمة وأحاطت بها من كل جانب لا مخرج منها إلا بالكتاب المبين والقرآن العظيم قال الله جل وعلا: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(٥١) نسأل الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يصلح أحوال المسلمين وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته فإنهم أهل الله لإقبالهم على صفة من صفاته وخاصته لأنهم عظموا ما عظم و أقبلوا على كتابه أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا ممن تعلم القرآن وعلمه.

---

(٥٠) الشورى: ٥٢

(٥١) الأنعام: ١٢٢.